﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التَّوبة: 128]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين انصراف المنافقين عن الهدى، وبيانِ مناقبِ الرّسول المُبلِّغِ للنّاسِ على المدَى

لمّا أمرَ الله تعالى رسولَه ﷺ أن يُبلِّغَ في هذه السّورةِ إلى الخلقِ، تكاليفَ شاقَّةً شديدةً صعبةً، يَعسُر تحمُّلُها إلّا لمنْ خصَّه الله تعالى بوجوهِ التَّوفيقِ والكرامة، ختمَ السّورةَ بما يوجبُ سهولةَ تحمُّلِ تلكَ التَّكاليف، وهو أنَّ هذا الرَّسولَ ﷺ منكم، فكلُّ ما يحصُلُ له منَ العزِّ والشَّرفِ في الدُّنيا، فهو عائدٌ إليكم، وأيضًا فهو بحالٍ يشقُّ عليه ضَررُكم، وتعظُمُ رغبتُه في إيصالِ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ إليكم، فهو كالطَّبيبِ المُشفِقِ، والأبِ الرَّحيمِ في حقِّكم، فلمّا عرفتُم أنَّه رسولٌ حقٌّ من عندِ الله، فاقْبلوا منه هذه التَّكاليفَ الشّاقَّةَ، لتفوزوا بكلِّ خير[1]، فالمناسبة بين هذه الآية، وما قبلها، لاسيّما ما يتناول أحوالَ المنافقين، هو بيانُ أنَّ الرّسول ﷺ مشفقٌ على جميعِ أمَّته، رحيم بهم أن يُصيبهم مكروهٌ، أو يَلحقَ بهم عذابٌ أليم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَنِتُّمۡ﴾: عنت: العَيْنُ والنّونُ والتّاءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مشقَّةٍ وما أشبهَ ذلك، ولا يدلُّ على صحَّةٍ ولا سهولة[2]، والمعانتةُ كالمعانَدةِ لكنَّ المعانتةَ أَبْلَغُ؛ لأنَّها معاندةٌ فيها خَوْفٌ وهلاك، ولهذا يُقال: عَنَتَ فلان: إذا وقعَ في أمرٍ يخافُ منه التَّلَفَ، يُعنُتُ عَنَتًا، قالَ تعالى: ﴿لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ﴾ [النّساء: 25] وقالَ ﷻ: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾ [آل عمران: 118][3]، و﴿لَأَعۡنَتَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 220]: ضيَّقَ عليكم وشدَّد،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/177.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عنت).
(3) الرّاغب، المفردات: (عنت).

وأصلُ العَنَت: الضَّررُ والفَساد[1] والهلاك، يُقال: فلان يتعنَّت فلانًا، أي: يطلب ما يؤدّيه إلى الهلاك، وقد أعنت العظمُ؛ إذا هيضَ بعد الجبْرِ[2]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي: عَنَتُكم، وهو دخولُ المضرَّةِ والمشقَّةِ عليكم[3].

2) ﴿حَرِيصٌ﴾: حرص: الحاءُ والرّاءُ والصّادُ أصلان: أحدُهما الشَّقّ، والآخَرُ الجَشَع، والثّاني هو المعنيُّ هنا في هذا السِّياق، فيُقال: حرَصَ إذا جَشَع، يحرِصُ حِرصًا فهو حَريص[4]، والحِرْصُ: فَرْطُ الشَّرَه، وفَرْطُ الإرادة، قالَ تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: 96]، وقالَ تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ [النّحل: 37]، أي: إن تُفرِطْ إرادتكَ في هدايتِهم[5]. ومعنى قوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، أي: حريصٌ على إيمانِكم، أو حريصٌ على ضُلّالِكم أنْ يهديَهمُ الله[6] ﷻ، أو الحريصُ الشَّحيحُ أن يَدخُلوا النّار[7]، وهذه المعاني كلُّها سائغةٌ في دخولِها في معنَى ﴿حَرِيصٌ﴾ في سياقِ الآية.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّه تعالى ممتنًّا على المؤمنين، بما أرسلَ إليهم رسولًا من أنفسهم، أي: من جِنْسِهم وعلى لغتِهم، كما قالَ تعالى عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، وكما قالَ ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164]، فهم يعرفون نسبَه وصفتَه ومدخلَه ومخرَجه وصدقَه وأمانتَه، وهو ﷺ

الرَّسولُ مِنَّةُ الله ورحمتُه بعبادِه، وهو رمزُ الحِرصِ على المؤمنين، والرّحمةِ والرّأفةِ بهم

(1) ابن قتيبة، غريب الحديث، ص: 124.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/361.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/77، والسِّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 324 - 325.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرص).
(5) الرّاغب، المفردات: (حرص).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 11/77 عن قتادة.
(7) الفرّاء، معاني القرآن: 1/456، وقال القرطبيّ، في الجامع: 8/302: "والحرصُ على الشَّيء: الشُّحُّ أن يَضيعَ ويَتْلف".

يعزُّ عليه الشَّيءُ الَّذي يُعنِتُ أُمَّتَه ويَشُقُّ عليها، وهو حريصٌ على هدايتِكم، ووصولِ النَّفعِ الدُّنيويِّ والأُخرويِّ إليكم، رؤوفٌ بكم يريدُ بكم كلَّ خيرٍ، رحيمٌ بكم كرحمةِ الأمِّ بطفلِها الرَّضيعِ؛ بل أشدّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ الابتدائي:

ختامُ السّورة خلاصةٌ لما سبقَ، ودعوةٌ لحفظِ مكانةِ الرَّسول الأكرم وقدرِه

في هذا الاستئناف الابتدائيّ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، مسكُ الختامِ، حيث كانَ في وقوعِها آخرَ السّورةِ ما يُكْسِبُها معنَى التَّذييلِ، والخلاصةِ المُحبَّرةِ، الَّتي انْفتحَ بها مع صاحبتِها الَّتي تَلَتْها بابُ حظيرةِ الإيمانِ والتَّوبةِ، ليدخُلَها مَنْ وفَقهُ اللّه إليها بعد سَعْيِه لها، والحرصِ على طلبِها والتَّمسُّكِ بها[2].

فائِدةُ التَّوكيدِ والتَّحقيقِ بلفظ ﴿لَقَدْ﴾:

الـرَّدُّ على من يُنكرُ الرّسالةَ منَ المنافقين، وتثبيتُ إيمانِ المؤمنين وزيادتِه وزيادتُه

مع كونِ مضمونِ قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ممّا لا يتطرَّقُ إليه الإنكارُ، لكنَّها افْتُتحتْ بحرفَيِ التَّأكيد، وهما اللّامُ و(قد)؛ لقصدِ الاهْتمامِ بهذه الجملةِ، لأهميَّةِ الغَرضِ الَّذي سيقتْ من أجلِه، ولأنَّ فيما تضمَّنتْه ما يُنكرُه المنافقون، وهو كونُه رسولًا منَ اللّه، ولأنَّ في هذا التَّأكيدِ ما يجعلُ المخاطَبين به منزَّلينَ منزلةَ المُنكِرينَ لمجيئِه، من حيثُ إنَّهم لم يَنْفعوا أنفسَهم بهذا المجيء، ولأنَّ في هذا التَّأكيدِ تسجيلًا عليهم مُرادًا به الإيماءُ إلى اقْترابِ الرَّحيل؛ لأنَّه لَمّا أُعيدَ الإخبارُ بمجيئِه، وهو حاصلٌ منذُ أعوامٍ طويلة، كانَ ذلكَ كنايةً عنِ اقْترابِ انْتهائه، وهو تسجيلٌ منه على المؤمنين، وإيداعٌ للمنافقين، ومَنْ بقيَ منَ المشركين، فجاءتْ زيادةُ الجملةِ في هذه السّورةِ، مؤكِّدةً لغرضٍ أهمَّ من إزالةِ الإنكار[3].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/366 - 367.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/70.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/71.

بَلاغة الاستعارةِ التَّبعيَّة، واختيارِ الفعلِ ﴿جَآءَكُمْ﴾:

المجيءُ عبارةٌ عن تبليغِ الرِّسالةِ، وأداءِ الأمانة، وإقامةِ الحُجَّة

قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، المجيءُ هنا مُستعملٌ مجازًا في الخطابِ بالدَّعوةِ إلى الدِّين، على سبيلِ الاسْتعارةِ التَّصريحيَّة، حيث شبَّه توجُّهَهُ إليهم بالخطابِ الَّذي لم يكونوا يترقَّبونَه، بمجيءِ الوافدِ إلى النّاسِ من مكانٍ آخَر، فاشتقَّ منَ المجيءِ فعلَ ﴿جَآءَكُمْ﴾، على سبيلِ الاسْتعارةِ التَّبعيَّة، وصرَّح بالمجيءِ على سبيلِ الاسْتعارةِ التَّصريحيَّة، وفي ذلكَ إقامةٌ للمباني مقامَ المعاني لبيانِ أهميَّةِ ذاك المجيءِ فهو ليس مجيئًا عاديًّا؛ بل هو مجيءُ رسولٍ بدعوةٍ ربّانيَّةٍ ورسالةٍ سماويَّةٍ، يُخرجُ النّاسَ بها من ظُلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمان[1]، ولذلك عبَّر بالمجيءِ دون الإتيان، لتقويةِ معنى التَّبليغِ، وأنَّه واضحٌ كوضوحِ المحسوساتِ في أعيُنِ النُّظّار.

غرَضُ تعْدِيةِ فعلِ المجيءِ إلى الضَّميرِ ﴿جَآءَكُمْ﴾:

مجيءُ رسولِ اللهِ المصطفى، شرفٌ مرامٌ، ورِفعةٌ لا تُرامُ

جاءتْ تعديةُ فعلِ المجيءِ إلى الضَّميرِ، في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، لإقامةِ الحُجَّةِ الظّاهرةِ، على مَنِ اخْتارَه اللهُ رسولًا من أنفُسِهم، وبأنَّ اللهَ شرَّفَهم بهذا المجيءِ، فالتَّشريفُ متحقِّقٌ لهم به، ومتحقّقٌ لهم بأنفُسِهم، فيما لو اتَّبعوه واهْتدَوْا بهَدْيه، وعزَّروهُ ونَصروه، وهذا المجيءُ كذلك امتنانٌ عليهم، بأنْ كانَ في البدايةِ لهم لا لغيرِهم[2]، وكفى بهذا التَّشريف رِفعةً ونُصرةً في الدُّنيا والآخرة، لمن آمن به واستجاب لدعوتِه.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿جَآءَكُمْ﴾:

تحقُّقُ إقامةِ الحُجَّةِ، في تبليغِ الرِّسالةِ والشَّهادةِ على الأُمَّةِ

قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ساقَ بيانُ اللهِ تعالى التَّعبيرَ بمجيئه ﷺ، بصيغةِ الماضي ﴿جَآءَكُمْ﴾؛ لإفادةِ تحقُّقِ المجيءِ، وتحقُّقِ غرضِه، وخاصَّة أنَّه جاءَ لهم بدايةً ومن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/71.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/55 - 56. 55 - 56.

أنفُسِهم، فهي إشارةٌ إلى إقامة الحُجَّة في تبليغِ الرِّسالة، وأصبح الأمرُ تحصيلَ حاصلٍ، لا مهربَ منه ولا مفرَّ.

غرَضُ تنكيرِ ﴿رَسُولٌ﴾:

جاءَ تنكيرُ ﴿رَسُولٌ﴾، في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، لغرضَيْن اثنَيْن:

تعظيمُ الرَّسولِ الأكرمِ، ومحبَّتُه واتِّباعُه، من مقاصد الهَدي القرآنيّ السّامي

أوَّلهما: تعظيمُ هذا الرَّسولِ الكريمِ ﷺ، أي هو بحقٍّ رسولٌ، وأيُّ رسول.

ثانيهما: ضرورةُ توفُّرِ دواعيهم على محبَّتِه ﷺ، فهو رسولٌ عنِ اللّه الخالقِ لهم، المالكِ لأمرهم، ومحبَّةُ هذا الدّاعي لهم، تقتضي ملازمَتَه والبُعدَ عمّا يفعلونَه به، منَ الانْصرافِ عنه، وأنَّ ما يحصُلونَ به منَ الشَّرفِ، هو كونُه رسولَ اللّه[1].

سِرُّ إيثارِ عنوانِ الرِّسالةِ، دونَ النُّبوَّةِ، في لفظ ﴿رَسُولٌ﴾:

تنبيهُ النّاسِ أنَّهم مكلَّفون بحملِ الرِّسالةِ، وتأديةِ الأمانةِ

الرَّسولُ صاحبُ رسالةٍ جديدةٍ بشرعٍ جديدٍ منَ اللّه تعالى يبلِّغُه النّاسَ، والنَّبيُّ: مُبلِّغٌ عنِ اللّه شرْعَ من سَبقَه من رسول[2]، فالرَّسولُ صاحبُ مَهمَّةٍ أعظمَ من مَهمَّةِ النَّبيّ. وبهذا يتبيَّنُ أنَّ إيرادَ السِّياق لعنوانِ الرِّسالة بيانٌ لعظمةِ هذا الرَّسولِ الكريم، وعظمةِ مَهمَّته ورسالته، وفيه كذلك لفْتُ انْتباهِ القوم إلى أنَّ الَّذي جاءهم هو رسولٌ منَ اللّه، وهذا يستدعي ضرورةَ اهْتمامِهم بشأنِه ﷺ الَّذي كرَّمهُم به، ويكونُ هذا الاهتمامُ بإكرامِه، واتِّباعِ رسالته، والاهْتداءِ بهَدْيه، وخاصَّةً أنَّه من أنفُسِهم[3]، وفيه تكليفٌ لهم بحملِ الرِّسالة الَّتي جاء بها رسولُهم ﷺ للنّاس جميعًا، فهم مكلَّفون بهذه الرّسالة، ومُضطلِعون بهذا العِبءِ العظيم.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/55 - 56.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 531، والكفويّ، الكلّيات: 1/108، 4/352، والجرجانيّ، والتَّعريفات، ص: 114، 258.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/56.

بَلاغةُ استعمالِ قَيْدِ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾:

تحريكُ مشاعرِ الانتماءِ، للتَّحريضِ على الاتِّباعِ

الأَنفُسُ: جمعُ نَفْسٍ، وهي الذّاتُ، وإضافةُ النَّفْس للضَّميرِ، أي: هو معدودٌ من ذوي نَسبِهم، وليس عِدادُه فيهم بحِلْفٍ أو وَلاءٍ أو إلصاق، فهو قُرَيْشيٌّ من أنفُسِهم، فقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: هو من صَميمِ نَسَبِكم، فأنتُم تَرْجِعونَ معه إلى نَفْسٍ واحدةٍ، بأنَّكم لأبٍ قريب، وذلكَ أَقْرَبُ إلى الأُلْفةِ، وأَسْرَعُ إلى فَهْمِ الحُجَّةِ، وأَبعدُ عنِ الجدالِ واللَّجاجة. فتعيَّن أنَّ الخطابَ للعرب؛ وفيه امتنانٌ على العربِ، وتنبيهٌ على فضيلتِهم، وفيه أيضًا تعريضٌ بتحريضِهم على اتِّباعِه، وتَرْك مُناوَأتِه، وأنَّ الأَجْدَرَ بهمُ الافْتخارُ به والالْتفافُ حولَه، كما قالَ تعالى في ذكرِ القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزُّخرف: 44]، أي: يبقى منه لكم ذِكْرٌ حَسَن[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾:

الخطابُ للعربِ على جهةِ المِنَّة عليهم، وبيانِ فضيلتِهم

التَّعبيرُ بصيغة الجمع ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ الخطابَ للعَربِ قاطبةً، وخاصَّةً من كانَ مِنْ نَسبِهم، وهذا على جهةِ تعديدِ النِّعمةِ عليهم في ذلك؛ إذْ جاءَ بلسانِهم وبما يفهمونَه منَ الأغراضِ والفَصاحةِ وشُرِّفوا به غابرَ الأيّام، وفيه كذلكَ مَدْحٌ لنَسَبِه ﷺ وأنَّه من صميمِ العربِ وشرفِها، وبيانٌ لفضيلةِ العربِ وامتنانٌ عليهم[2].

دَلالةُ توجيهِ قراءةِ: (من أَنفَسِكُم) بفتح الفاء:

بيانُ عراقةِ أصلِ الرّسول الكريم، ونفاسةِ مَحْتِدِه، وشرفِ أرومَتِه

قراءةُ قوله تعالى: (مِنْ أَنفَسِكُم)[3] على صيغة أفعلِ تفضيلٍ، هي منَ النَّفاسة، والمرادُ الشّرفُ، فهو ﷺ من أشرفِ العربِ، ففي حديث المُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَداعَةَ، قال: قال العَبّاسُ: «بَلَغَهُ ﷺ بَعْضُ

(1) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/100، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/56، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/71.

(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/100.

(3) هي قراءة شاذّة، نُسبت إلى ابن عبّاس وأبي العالية والضّحاك وابن محيصن ومحبوب والرّؤاسي عن أبي عمرو وعبد الله بن قسيط المكّي ورويس عن يعقوب والزّهري ورويت عن فاطمة وعائشة ﵄. يُنظر: ابن جنيّ، المحتسب: 1/306، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/65.

ما يَقولُ النّاسُ، فصعِدَ المنبرَ، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، وقال: من أنا؟ قالوا: أنت رسولُ الله، قال: أنا محمّد بنُ عبد الله بنِ عبد المطلب، إنَّ الله تعالى خلقَ الخلْقَ، فجعلني في خيرِ خلْقِه، وجعلهم فرقتَين، فجعلني في خيرِ فرقةٍ، وجعلهم قبائلَ، فجعلني في خيرِهم قبيلةً، وجعلهم بيوتًا، فجعلني في خيرهم بيتًا، فأنا خيرُكم بيتًا وخيرُكم نفْسًا»[1]. وأخرج البخاريُّ والبيهقيُّ في الدّلائلِ عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «بُعثتُ من خيرِ قرونِ بني آدم قرنًا فقرنًا، حتّى كنت منَ القرن الّذي كنت فيه»[2]، وأخرج مسلمٌ وغيرُه عن واثلةَ بنِ الأسقع قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيلَ، واصطفى من ولد إسماعيلَ بني كنانةَ، واصطفى من بني كنانةَ قريشًا، واصطفى من قريشٍ بني هاشمٍ، واصطفاني من بني هاشم»[3]، وروى البيهقيُّ عن أنسٍ: أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما افترق النّاسُ فرقتين إلّا جعلنيَ الله تعالى في خيرهما، فأُخرجتُ من بين أبويّ، فلم يصبني شيءٌ من عَهْرِ الجاهليّة، وخرجت من نكاح، ولم أخرج من سِفاح، من لدنِ آدم حتّى انتهيت إلى أبي وأمّي، فأنا خيرُكم نفسًا وخيرُكم أبًا»[4].

سِرُّ الفَصْلِ بين الصِّفةِ، والموصوفِ ﴿عَزِيزٌ﴾ ﴿رَسُولٌ﴾:

قولُه تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾، جاءَ فصلُ الصِّفةِ ﴿عَزِيزٌ﴾ عنِ الموصوفِ ﴿رَسُولٌ﴾، بقولِه تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ للتَّنويهِ والإيماءِ إلى أنَّ هذا الرَّسولَ، لمّا كان من أنفُسِكم فلا بدَّ أنَّه يثقُلُ على نفسِه، إيقاعُكم في التَّعبِ والمشقَّة؛ فكانَ هذا الفاصلُ توطئةً لتمكُّنِ الصِّفةِ من موصوفِها؛ تمكُّنًا لا يحتملُ أيَّ شكٍّ في

شأنُ القرآنِ العنايةُ بالطّاقاتِ الموجودةِ لدَى النّاس، بدلًا من إهمالِها أو إغفالِها

(1) رواه أحمد، المسند، الحديث رقم: (1788)، والترمذي، السنن، الحديث رقم: (3532).
(2) أخرجه البخاريّ، كتاب المناقب، باب صفة النّبي ﷺ، الحديث رقم: (3557).
(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النّبيّ ﷺ: 4/1782.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/49.

تحقُّقه، وهذا أيضًا تحريضٌ لقومِه لاتِّباعِه ومُؤازرتِه ﷺ، فهو أَرْفَقُ بهم من أَنْفُسِهم بأنفُسِهم، فهذه صفتُه الملازمةُ له في سيرتِه ودعوتِه وحياتِه معهم[1]، فالفصلُ بين الصِّفة والموصوف، بقيدِ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، فيه توضيحٌ وإبانةٌ في كونِ الرَّسولِ من أنفسِهم، قبْل بيانِ كونِه عزيزًا عليه هلاكُهم؛ لأنَّ هذه الإبانةَ، هي تحريضٌ على الإذعان والخضوع، وفيه إيماءٌ إلى قيمةِ أن يكون المرسَلُ من أَنْفَسِ العربِ، فهم قومٌ ما زالتِ الحميَّةُ قائمةً آثارُها في نفوسِهم، وهذا من توجيه القرآنِ للطّاقات، بدلًا من إهمالِها أو نبْذِها.

بَلاغةُ تَعْدِيةِ ﴿عَزِيزٌ﴾، بحرفِ الاستعلاءِ (على):

قولُه تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، الأصلُ في العزيز: الغالبُ، والعِزَّةُ: الغَلَبَة، يُقالُ: عَزَّهُ إذا غَلَبَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص: 23]، فلمّا عُدِّي ﴿عَزِيزٌ﴾ بحرفِ (على) وهو حرفُ اسْتعلاءٍ؛ دلَّ على معنَى الثِّقَلِ والشِّدَّة على النَّفس[2]، أي: يعِزُّ على نفسِه أن يَهلِك قومُه، أو يُصيبَهم سوءٌ، أو يَلحقَهم عذابٌ، فكان لهذا الحرفِ وقعٌ عجيبٌ، حيث صوَّر تمكُّنَ عنَتِهم وهلاكِهم من تفكيرِه ﷺ، واهتمامِه وشعورِه بهم، وهو ما يُترجِمُ عظيمَ رأفته، وكبيرَ رحمتِه بهم، التّي اختصَّ بها المؤمنون فيما بعدُ.

تصويرُ أسَفِه ﷺ، على هلاكِ القومِ، بما يُترجِمُ رأفتَه ورحمتَه

بَلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿عَنِتُّمْ﴾، في هذا السِّياقِ:

العَنَتُ: التَّعب، وقولُه تعالى: ﴿عَنِتُّمْ﴾ أي: تعبتُم، ومعناها في هذا السِّياقِ: شاقٌّ عليه حُزنُكم وشَقاؤكم، وهذا كقولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشُّعراء: 3]. وذكْرُ هذا في صفةِ الرَّسولِ ﷺ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، يُفيدُ أنَّ هذا خُلُقٌ له فيكونُ أَثَرُ ظُهورِه الرِّفقَ بالأُمَّةِ، والحذَرَ ممّا يُلقي بهم إلى العذابِ في الدُّنيا

موافقةُ خُلُقِ الرَّسولِ ﷺ لشريعتِه، في الرِّفقِ بالخلْقِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/56.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/72.

والآخرة، ومن آثارِ ذلكَ شفاعتُه للنّاسِ كلِّهم في الموقفِ، لتعجيلِ الحساب، ثمَّ إنَّ ذلكَ يومئُ، إلى أنَّ شرعَه جاءَ مناسبًا لخُلُقِه، فانْتفَى عنه الحَرَجُ والعُسْرُ، قالَ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، وقالَ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحجّ: 78][1].

معنَى ﴿مَا﴾، ونكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ الماضي ﴿عَنِتُّمْ﴾:

الإيماءُ إلى ما عزَّ عليه ﷺ، ممّا وقعَ للعربِ من مشقَّةٍ ومكابَدَةٍ

قولُه تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، جاءَ التّعبيرُ فيه، بصيغةِ الماضي ﴿عَنِتُّمْ﴾، مع ﴿مَا﴾ المصدريَّة[2] السّابكةِ للمصدرِ، دون الفعل الدّالِّ على المستقبلِ، فلم يقل: (ما يُعنتكم)، فيه نكتةٌ دقيقةٌ، وهي إفادةُ أنَّه قد عزَّ عليه عَنَتُهمُ الحاصلُ في الزَّمنِ الَّذي مضَى، وذلك بما لقوهُ من قَتْلِ قومِهم، ومن الأَسْرِ في الغَزَوات، ومن قوارعِ الوعيدِ والتَّهديدِ في القرآن، فلو أُتي بالفعل الدّالِّ على المستقبلِ، لم يكنْ مُشيرًا إلى عَنَتٍ مُعيَّنٍ، ولا إلى عَنَتٍ وقع؛ لأنَّ المصدرَ لا زمانَ له؛ بل كان مُحتمِلًا أنْ يعِزَّ عليه بأنْ يجنِّبَهم إيّاه، ولكنَّ مجيءَ المصدرِ مُنسبكًا منَ الفعلِ الماضي، يجعلُه مصدرًا مُقيَّدًا بالحصولِ في الماضي، فيكونُ تقديرُه عندَ ذلكَ: عزيزٌ عليه عَنَتُكُمُ الحاصلُ فيما مضَى؛ لتكونَ هذه الآيةُ تنبيهًا على أنَّ ما لَقوه منَ الشِّدَّةِ، إنَّما هو لاسْتصلاحِ حالِهم، لعلَّهم يُخفِضونَ بعدَها من غُلَوائِهم، ويَرْعَوونَ عن غَيِّهم ويَشعرونَ بصلاحِ أمرِهم[3].

براعةُ اسْتعمالِ مُفردةِ ﴿حَرِيصٌ﴾، مع حرفِ الاسْتعلاء في السّياق:

تشبيهُ حِرصِه ﷺ على أمَّتِه، بحِرْصِ النّاسِ على أموالِهم

قولُه تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، الحِرْصُ: شدَّةُ الرَّغبةِ في الشَّيء والجَشعِ إليه والتَّمسُّكِ به، وغالبُ الاسْتعمالِ لهذه المُفردةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/72.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/456، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/477.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/72.

في البُخل، ولَمّا تعدَّى هنا إلى ضميرِ المخاطَبين ﴿عَلَيْكُم﴾ الدّالِّ على الذَّوات - وليستِ الذَّواتُ هي مُتعلَّقُ الحرصِ هنا - تعيَّنَ تقديرُ مُضافٍ، فُهِمَ من مقامِ التَّشريع، بتقدير: على إيمانِكم أو هَدْيِكم، فوصفُ رسولِ الله ﷺ في هذا المقام بهذه الكلمةِ للدَّلالةِ على حرصِه على أُمَّتِه، وشدَّةِ عنايتِه بهم، ورعايتِه لأحوالِهم، فأقيمتْ هنا مقامَ تشبيهِ الرَّسول ﷺ بمن يحرِصُ على أموالِه الثَّمينةِ، ويخافُ عليها منَ الهلاك، وفيها كذلك تعريضٌ بمن يَحرِصُ على أموالِه، حرصًا أشدَّ من حِرْصِه على دينِ الله وشَرْعِه، أو بمَنْ يُفوِّتُ ما يجبُ عليه تجاهَ رسالةِ ربِّه ودعوتِه، ولا يُفوِّت حرصَه على أموالِه وثَروتِه؛ بل حرصُه ﷺ قائمٌ على الحقيقةِ والجوهر، وحرصُ النّاس على أموالهم قائمٌ على الزّائلِ والعَرَضِ[1].

بَلاغةُ الالْتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغَيْبةِ:

قولُه تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وفيه أنّه لَمّا خصَّ الله المؤمنينَ من بين سائرِ العربِ وغيرِهم بالرَّأفةِ والرَّحمة، وخاطبَ الله أولئك المَعنيِّينَ بمجيئه إليهم، وهو من نَسَبِهم، مع حرصِه على دَفْعِ ورَفْعِ أيِّ مشقَّةٍ عنهم، وذلك في مَعْرِضِ المِنَّة الرَّبّانيَّة العامَّةِ عليهم، بهذا الرَّسولِ الكريم ﷺ، انتقل إلى أسلوبِ الغَيْبةِ، بتخصيصِ فئةٍ منهم، وهم جماعةُ المؤمنين؛ لأنَّهم مَنْ يستحقّون هذا التَّخصيصَ بالرَّأفةِ والرَّحمة، فهو انتقالٌ منَ الرَّحمةِ العامَّة، إلى الرَّحمة الخاصَّة، بمن استحقَّها عن جدارةٍ واقتدارٍ.

رحمةُ الله تُحيطُ بمن حَرِصَ عليها، وتتجاوزُ من تجاوزَها إهمالًا وإغفالًا

معنَى حرفِ الباءِ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، للإلصاقِ المجازيّ، أي: رأفتُه ورحمتُه ﷺ ملازمةٌ لهم لا تُفارقُهم، ويمكنُ أن تكونَ

مَنْ صَحِبتْه رأفتُه ﷺ، حظيَ بهدْيِه في الدُّنيا، وشفاعتِه في الآخرةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/72.

للمُصاحَبَةِ بمعنَى (مع)، أي: رأفتُه ورحمتُه ﷺ مُصاحبةٌ لهم في جميعِ أحوالِهم[1]. وفي كلا المعنَيَيْن مبالغةٌ في بيانِ شدَّةِ رأفتِه ورحمتِه ﷺ بالمؤمنين، وفي هذين المعنَيَيْن كذلك، بيانُ منَّةِ اللّه على عبادِه المؤمنين، أن أرسلَ إليهم هذا الرَّسولَ الكريمَ بهاتين الصِّفتيْنِ الملازمَتَيْنِ المصاحبَتَيْنِ لهم.

نُكتةُ تقديمِ المُتعلَّقِ على عاملَيْه:

معالمُ علاقةِ المؤمنين الوطيدةِ، بصاحبِ الشّمائلِ الحميدةِ

قولُه تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وفيه تقديمُ المتعلِّقِ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على عاملَيْه ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ للدَّلالةِ عل عظيمِ الاهتمامِ بالمؤمنين في توجُّه صِفَتَيْ رأفتِه ورحمتِه بهم[2]، وللإيماءِ إلى أنَّ هذه الرأفةَ والرّحمة قاربت أن تكونَ خاصَّةً بالمؤمنين دون غيرِهم، ففيه بيانُ عنايةِ النَّبيِّ ﷺ بالمؤمنين، ورعايتِهم في تربيتهم على تلك الرأفة والرحمةِ.

بَلاغةُ الجمعِ بين صفتَي ﴿رَءُوفٌ﴾ و﴿رَّحِيمٌ﴾:

صفتا الرَّأفةِ والرَّحمةِ، بينَهما عُمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ في الآيةِ الكريمةِ

الرَّؤوفُ: الشَّديدُ الرَّأفة، والرَّحيمُ: الشَّديدُ الرَّحمة؛ لأنَّهما صيغَتا مبالغةٍ، وهما يتنازعان المجرورَ المتعلِّقَ بهما وهو ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والرَّأفةُ: رِقَّةٌ تنشأُ عند حدوثِ ضُرٍّ بالمرؤوف به. والرَّحمَةُ: رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ للمرحوم، فبينَهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلَق، ولذلك جُمِعَ بينَهما مع اختلافِ لوازمِهما، والمبالغةُ في هاتين الصِّفتَيْن جاءتْ في حقِّ المؤمنين، وأمّا في غيرِ المؤمنين فيُقال: رائفٌ وراحمٌ، ولا يُقالُ: بهم رؤوفٌ رحيم. ولذلك كانتْ رحمتُه ﷺ العامَّةُ الثّابتةُ، بقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: 107]، رحمةً مشوبةً بشدَّةٍ على غيرِ المؤمنين[3].

(1) أبو القاسم الزَّجاجيّ، شرح حروف المعاني والصِّفات، ص: 47 - 48، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 208 - 211.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/73.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/73.

بَلاغةُ تقديمِ صفةِ ﴿رَءُوفٌ﴾ على صفةِ ﴿رَّحِيمٌ﴾:

شدَّةُ الرَّحمةِ تقتضي مراعاةَ الأغراضِ النَّفسيَّةِ، لدَى المخاطَبين بالبلاغِ

لَمّا ذكرتِ الآيةُ الوصْفَ المقتضيَ للرُّسوخِ بقولِه: ﴿حَرِيصٌ﴾، قدَّم ما يقتضي العطفَ على مَنْ يتسبَّبُ له بما يقتضي الوَصْلة، فقال: ﴿رَءُوفٌ﴾، أي: شديدُ الرَّحمة لمن له منه عاطفةٌ وصِلَةٌ لما تبيَّنَ من وجودِ الرِّقةِ الفائقةِ الشَّديدة بالمؤمنين، ولَمّا كان المؤمنُ يُطلَقُ مجازًا على مَنْ يمكنُ منه الإيمانُ فوصلتُه الآنَ ليست بالفعلِ؛ بل بالإمكان، قالَ تَعْميمًا لرحمَتِه ﷺ، كما هو اللّائقُ بشريفِ منصبِه، وعظيمِ خُلُقِه: ﴿رَّحِيمٌ﴾، ولأجلِ مثلِ هذه الأغراضِ النَّفسيَّةِ رتَّبَ ﷺ هذيْنِ الوصفَيْنِ وقدَّمَ أحدَهما على الآخر[1]، فترتيبُ الصّفتين، هو على طريق التَّدَلّي، فبدأ بالرَّؤوفِ فالرَّحيم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَنَتُ والتَّعبُ:

التَّعبُ أعمُّ وأشملُ منَ العَنَت، الّذي هو أخصُّ وأشدُّ

المُعانَتةُ كالمعاندة كالمُعانَدةِ، لكنَّ المعانتةَ المُعانَتةَ أَبْلَغُ؛ لأنَّها مُعانَدَةٌ فيها خوفٌ وهلاك، ولهذا يُقالُ: عَنَتَ فلان: إذا وقعَ في أمرٍ يُخافُ منه التَّلَفُ، يَعنُتُ عَنَتًا، قالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النّساء: 25][2]، وقولُه تعالى: ﴿*وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: 111]، أي: ذلَّتْ وخَضَعت.

والتَّعبُ: الإعْياء، حتَّى يُقالَ: تَعِبَ تَعَبًا، وهو تَعِبٌ، ولا يُقالُ: مَتْعوب، وأَتْعبتُه أنا إتعابًا، ويُقالُ للعَظْمِ المجبورِ، إذا أصابَه ألمٌ فَهاضَه: قد أعْنَتَه، ولا يُقال: قد أُتعِبَ العَظْمُ[3]، فالتَّعب أشملُ وأعمُّ، والعنتُ يأتي على كسْرِ العظم وما يُشابهُه، فالعنت أشدُّ وأخصُّ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/56.
(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (عنت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/348، والرّاغب، المفردات: (عنت).

الرّأفةُ والرَّحمةُ:

الرَّأفةُ: أشدُّ الرَّحمةِ وأبْلَغُ منها، وأقوى منها في الكيفيَّة؛ لأنَّها عبارة عن إيصالِ النِّعمِ صافيةً عنِ الألم، والرَّحمةُ: إيصالُ النِّعَم مُطلقًا، وقد يكونُ مع الكراهةِ والألمِ، للمصلحةِ كقطعِ العُضوِ المجذوم، وإطلاقُ الرَّأفةِ عليه تعالى كإطلاقِ الرَّحمة[1].

الرَّأفةُ أشدُّ منَ الرَّحمة، وهي إيصالُ النِّعَمِ من غيرِ ألَمٍ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 246 - 247، والكفويّ، الكلِّيّات: 2/378، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 115.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»